معركة العلمين
بداية النهاية للفيلق الإفريقى

كرٌ وفرٌ فوق رمال وهضاب الأراضى الصحراوية فى شمال إفريقيا تفوق فيه روميل تفوقا حاسما حتى تمكنت قوات الفيلق الألمانى تحت قيادته من الوصول إلى العلمين على حدود مصر الغربية فى شهر يوليو عام ١٩٤٢ . وبين تل العيسى الصخرى على ساحل البحر المتوسط وهضبة الحميمات التى يبلغ ارتفاعها ستمائة قدم وبالقرب من منخفض القطارة ، وجد روميل أن هذا هو الموقع المثالى الذى لا يمكن الالتفاف حول جناحه من جهة الجنوب وفى هذا المكان بالقرب من العلمين توقفت بقايا جيش روميل وهى منهكة القُوَى بسبب القتال الشديد لاستخلاص طبرق ومطاردة التشكيلات القتالية المتجددة للجيش الثامن البريطانى تحت قيادة عديد من القادة الإنجليز بدءاً من الجنرال «أوكونور» والجنرال «نيم» اللذين وقعا فى أسر روميل فى معركة باتل آكس فى يونيو عام ١٩٤١ ومرورا بالجنرال ويقل ثم الجنرال ويلسون ثم الجنرال كننجهام ثم الجنرال نيل رتيشى ، ولم يفلح أى واحد من أولئك القادة الإنجليز فى التغلب على تكتيكات روميل ، وكانوا يضطرون إلى الانسحاب ببقايا التشكيلات القتالية شرقا ليتقدم روميل على رأس الفيلق الإفريقى حتى وصل إلى العلمين ، وعندئذ رأى الجنرال البريطانى القدير أوكنلك بالرغم من أنه كان قائدا للجيوش البريطانية فى الشرق الأوسط بعد الجنرال ويقل أن يأتى إلى مصر لكى يقود بنفسه قوات الجيش البريطانى الثامن ضد قوات روميل بحيث لا يدخل روميل من بوابة مصر الغربية فى العلمين بأى حال من الأحوال .

ولقد كانت القوات العسكرية تحت قيادة روميل التى أفلحت فى الوصول إلى العلمين قوات قليلة إلى حد أن روميل كتب فى مذكراته يوم ٣ يوليو

١٩٤٢ يقول : «لقد تلاشت قواتنا» . وكان من الطبيعى أن تصل إلى روميل إمدادات عسكرية من ألمانيا ومن إيطاليا ، كما أنه كان من الطبيعى أن تصل إلى الجنرال أوكنلك إمدادات عسكرية بريطانية .

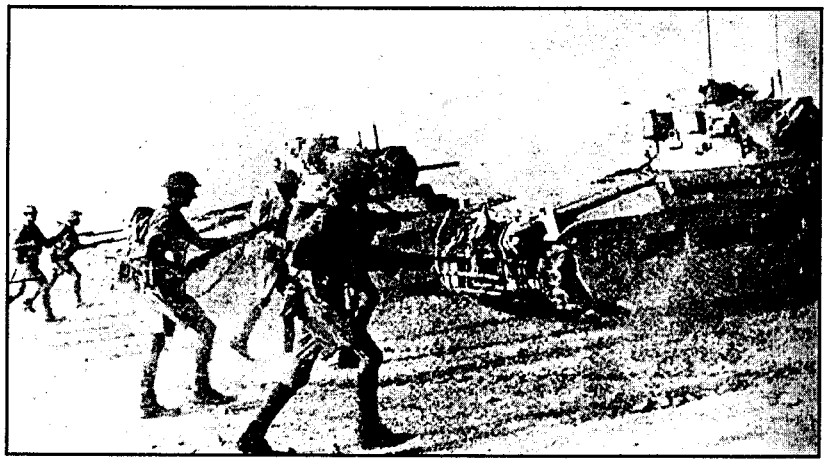

«أحد مشاهد معركة العلمين»

وعند هذه المسألة ، مسألة وصول الإمدادات العسكرية إلى طرفى معارك العلمين ينبغى أن تكون لنا وقفة تأمل ودراسة لظروف وصول الإمدادات العسكرية إلى طرفى معارك العلمين .

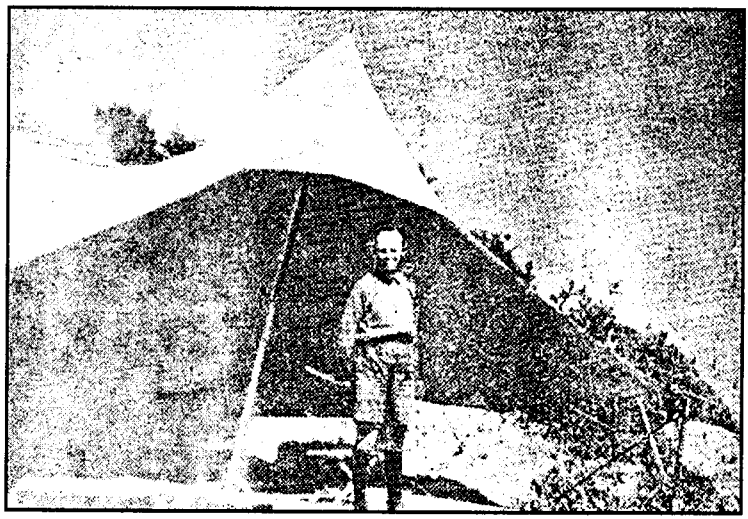

«روميل يقف متأملاً أمام خيمته»

يقول الليفتنانت چنرال «فرتيز بايرلين» الذى كان يشغل منصب أركان حرب الفيلق الإفريقى فى قيادة الفيلد مارشال إروين روميل ، وكان بايرلين لا يزال برتبة العقيد آنذاك : «تضاءل إلى حد كبير تدفق الإمدادات العسكرية إلينا عبر البحر المتوسط إلى ما يعادل ستة آلاف طن شهريا ، وهى كمية تعادل خمس حاجاتنا الاعتيادية تقريبا . وكان السبب فى ذلك هو إغراق سلاح الجو البريطانى والأسطول البريطانى لثلاثة أرباع السفن التى كانت تحمل الإمدادات العسكرية إلينا . وهكذا أصبح من المستحيل تكديس وتخزين أى فائض من الإمدادات العسكرية لتلبية متطلبات المعارك الساخنة عند الاشتباك فى معارك كبيرة مع القوات البريطانية فى كل جبهة شمال إفريقيا . وكان سلاح الجو البريطانى قد أصبح أقوى بكثير مما كان عليه شأنه فيما مضى سواء بالنسبة إلى عدد الطائرات أو بالنسبة إلى كفاءة الطيارين الإنجليز وقدرتهم على الاشتباك ، وعلى العكس من ذلك كانت قوة سلاح الجو الألمانى التى كان يقودها الفيلد مارشال كيسلرنج من الأراضى الإيطالية تتضاءل يوما بعد يوم إذ لم تكن تصل إلى كيسلرنج أى أسراب جديدة من الطائرات الألمانية لتحل محل الطائرات التى كان يفقدها فى الاشتباكات كل يوم وذلك لأن هتلر ومارشال الرايخ جورنج كانا يحتاجان إلى كل طائرة يتم إنتاجها فى ألمانيا للزج بها فى ميادين الجبهة الشرقية فى روسيا وهى الجبهة التى كانت تحظى بكل اهتمام هتلر آنذاك .

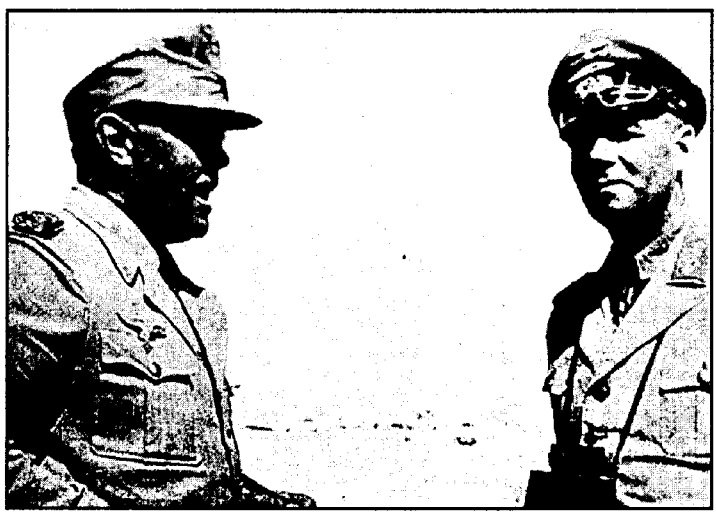

«كسلرنج أحد أبرز قادة هتلر يتبادل الآراء مع روميل»

وهكذا أصبحت قوة المقاتلات الألمانية ضعيفة جدا من الناحية العددية ، كما أُسقط ومات ملك الأجواء الإفريقية النقيب طيار «مارسيللى» الذى سبق له أن انتصر فى مائة وثمانية وخمسين اشتباكا جويا ضد طائرات بريطانية وكأنما كان إسقاط طائرته وموته نقطة تحول فى السيطرة الجوية لتصبح خالصة لسلاح الجو البريطانى فوق البحر المتوسط وفوق مسرح العمليات فى شمال إفريقيا بالتدريج لتصبح سيطرة كاملة بمرور الوقت .

ومن هنا ظهرت واضحه للعيان فداحة خطأ هتلر فى معارضته لرأى روميل فى ضرورة احتلال قوات ألمانية لجزيرة مالطة وانتزاعها من يد البريطانيين إذ قال هتلر فى قرار من قراراته المهلكة : «يمكن تموين «العلمين» بصورة مرضية عن طريق كريت ، أما مالطة فمن الممكن أن نبقيها ساكنة فقط من خلال قصفها بالطيران بشدة وقد تعهد بذلك مارشال الرايخ جورنج» .

مارشال الرايخ جورنج مرة أخرى وتعهداته التى لم يستطع الوفاء بها . تعهد من قبل أن سلاح الطيران الألمانى كفيل بالقضاء على القوات البريطانية المنسحبة من دانكرك فصدرت الأوامر إلى القوات المدرعة الألمانية بقيادة روميل بالتوقف بعد أن تَعَقَّبت القوات البريطانية المنسحبة من دانكرك لأن سلاح الطيران الألمانى هو الذى سيقضى عليها بكل سهولة وبدون أى خسائر ألمانية ! وعادت القوات البريطانية التى انسحبت من دانكرك لكى تواجه قوات روميل فى شمال إفريقيا .

وتعهد مارشال الرايخ جورنج بأن سلاح الجو الألمانى يستطيع إمداد الجيش السادس الألمانى تحت قيادة الجنرال باولوس بما يحتاجه من إمدادات ولا حاجة بهذا الجيش إلى الانسحاب أمام ستالينجراد مما أفضى فى النهاية إلى تدمير الجيش السادس الألمانى بكل أفراده وبكل أسلحته ، وفقدت ألمانيا ٢٥٠ ألف

مقاتل من أكفأ المقاتلين الألمان الذين كان يمكن لهم الدفاع عن ألمانيا لو كان هتلر لم ينخدع بتعهدات مارشال الرايخ جورنج الزائفة .

كان قرار هتلر فيما يتعلق بالنكوص عن الاستيلاء على جزيرة مالطة قرارا خاطئا مهلكا . وكانت «طبرق» شوكة فى جنب وظهر قوات روميل تمكن من انتزاعها بعد جهود مضنية ، وكانت جزيرة مالطة شوكة وعقبة فى طريق الإمدادات العسكرية لجيش روميل فى البحر المتوسط ، ولكن هتلر كان قد أصدر قراره الخاطئ بعدم الاستيلاء على جزيرة مالطة كما كان روميل يرغب بشدة فى الاستيلاء عليها . بل إن روميل كان يرغب فيما هو أكثر من ذلك ، إذ كان يرغب فى الاستيلاء على مالطة وتجنب اختراق القوات البريطانية فى مصر كلها لينقل قواته إلى شرق البحر المتوسط وفلسطين وسوريا والعراق مباشرة، وهو ما لم يوافق عليه هتلر ، وظلت مالطة فى يد بريطانية تهاجم منها قوافل سفن الإمدادات الألمانية والإيطالية إلى جيش روميل فى العلمين وفى شمال إفريقيا .

وكانت سفن الإمدادات الألمانية والإيطالية تسير بحرا عن طريق جزيرة صقلية ثم تتجه إلى ميناء بنغازى عندما وصلت قوات روميل إلى العلمين . وكان طريق الإمدادات الألمانية على هذا النحو يقع فى نطاق المدى المؤثر للقوات البريطانية فى جزيرة مالطة بكل سهولة . ولم تكن سعة ميناء طبرق الصغيرة كافية لرسو كثير من سفن الإمدادات للقوات الألمانية ، فكانت هذه السفن تتوزع على موانئ أخرى بعيدة عن منطقة العلمين مما كان يجعلها تحت رحمة القوات الجوية البريطانية والسفن الحربية البريطانية باستمرار ودون هوادة ، كما أن عمليات نقل الإمدادات نفسها من الغرب إلى الشرق لتصل إلى روميل فى العلمين كان يستهلك كميات كبيرة من المحروقات والبترول فى حد ذاته مما

كان يتسبب فى قلة كميات البترول التى تصل بالفعل إلى جيش روميل ، وسنجد أن هذا العامل وحده كان من أهم العوامل المؤثرة فى مصير معارك العلمين لصالح بريطانيا .

روميل يناقش الهجوم الوشيك على «طبرق» مع مجموعة من الضباط الألمان الشبان

كانت المسافة بين طبرق والعلمين تصل إلى ثلاثمائة وثلاثين ميلا . وكانت المسافة من بنى غازى إلى العلمين تصل إلى ستمائة وستين ميلا ، وكانت المسافة من طرابلس إلى العلمين تبلغ ألفا ومائتى ميل . وكانت الإمدادات إلى الفيلق الألمانى تعتمد على هذه الموانئ الثلاثة كل الاعتماد .

ولو نظرنا إلى الجانب الآخر نحو طرق مواصلات وإمدادات قوات الجيش الثامن البريطانى المواجه لقوات روميل عند العلمين نجد أن القوات البريطانية كانت المسافة بينها وبين الإسكندرية لا تزيد على خمسة وخمسين ميلا . وكانت الإمدادات تصل إلى هذه القوات البريطانية من فلسطين والهند واستراليا وكافة المستعمرات البريطانية شرقى السويس . ولم تكن السويس تبعد عن

الإسكندرية أكثر من ٢٠٠ ميل . كما كانت الطرق المرصوفة تربط بين السويس والقاهرة والإسكندرية ومرسى مطروح ، كما كانت هنالك خطوط سكة حديد فى مصر تخدم المجهود الحربى البريطانى فى العلمين . وكانت كل إمكانات مصر تحت السيطرة التامة للجيش البريطانى .

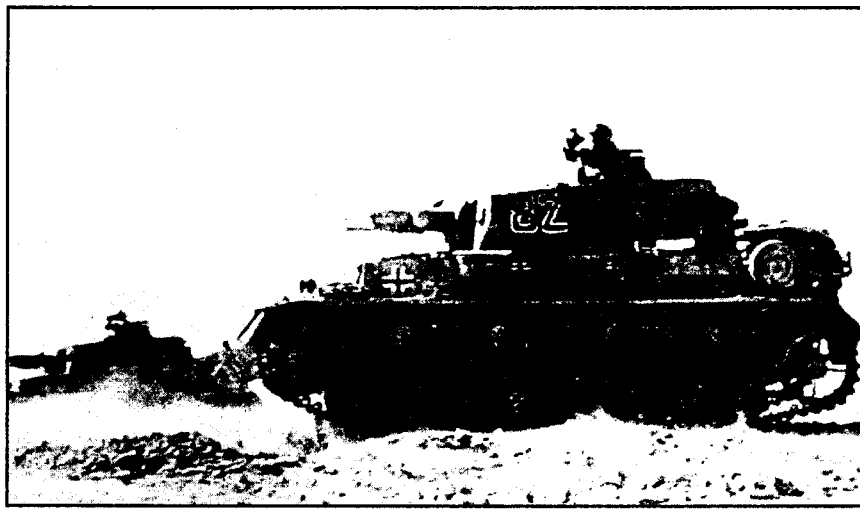

إحدى المعارك الهجومية والتى تقودها الدبابات الألمانية

ولو نظرنا إلى القيادة العليا التى كان يخضع لها روميل فى مقابل القيادة العليا التى كان يخضع لها قائد الجيش الثامن البريطانى نجد أن الفيلد مارشال روميل كان يخضع مباشرة إلى قيادة الفيلد مارشال كيسلرنج فى مقر قيادته فى إيطاليا والفيلد مارشال الإيطالى «كفاريللى» ، وكانت القيادة العليا فى ألمانيا تتمثل فى شخص الفوهرر أدولف هتلر النازى الذى كان يفتقر إلى الخبرة العسكرية وإلى الثقافة السياسية فى آن واحد حيث إنه كان مجرد جاويش فى الحرب العالمية الأولى وكان فى سلاح الخدمات الطبية مما كان يجعل قدرته على إصدار القرارات والتوجيهات العسكرية على مستوى الجيوش قدرة محدودة للغاية وهو الشأن الذى أكدته الأحداث فى النهاية على نحو لا سبيل إلى الشك فيه على الإطلاق ، كما كانت القوات الإيطالية خاضعة لسيطرة الدوتشى

الفاشستى «موسولينى» الذى كان أستاذا للفلسفة مشوَّش الذهن يحلم هو الآخر مجرد حلم مجنون باستعادة أمجاد الإمبراطورية الرومانية ولا يهمه شىء سوى أن يستعرض القوات الألمانية والإيطالية على أرض مصر عند سفح الأهرام ولا خبرة له بشئون الحرب والانتصار فى المعارك العسكرية الكبرى .

ولو نظرنا إلى القيادة العليا التى كان يخضع لها قائد الجيش الثامن البريطانى نجد أنها كانت تابعة إلى قائد جيوش الشرق الأوسط الجنرال المحنك «أوكنلك» الذى انتقل بمقر قيادته إلى القاهرة ومرسى مطروح لكى يتولى قيادة الجيش الثامن بنفسه عندما لاحظ قصور الجنرال «رتيشى» فى حرب الدبابات فى مسرح الحرب الصحراوى ، وألغى جميع خطط انسحاب الجيش الثامن إلى الشرق وقرر الثبات فى العلمين . كما كانت القيادة الاستراتيجية البريطانية العليا فى يد «ونستون تشرشل» الذى كان يجمع بين الخبرة العسكرية والخبرة السياسية العالية الكفاءة . وإذا كان تشرشل قد أغفل أهمية مسرح الحرب فى شمال إفريقيا نظرا لانعدام كفاءة الجيوش الإيطالية ، ولنجاح الجنرال أوكونور فى اجتياح القوات الإيطالية فى بداية الحرب فى شمال إفريقيا ، ونظرا للخطر الذى كانت تتعرض له اليونان فأمر تشرشل بسحب قوات وأسلحة ودبابات من الجيش الثامن لمواجهة الخطر الذى كان يهدد سقوط اليونان فى يد الألمان ، فلقد تغيرت الظروف الآن بوصول جيش البانزر الألمانى بقيادة روميل إلى شمال إفريقيا وتهديده مصر وكل منطقة الشرق الأوسط ذات الأهمية الاستراتيجية الكبيرة بالنسبة إلى الإمبراطورية البريطانية ، وعندئذ برزت أمام تشرشل أهمية وضرورة دحر الفيلق الألمانى وإبعاد خطورته عن مصر وعن كل منطقة الشرق الأوسط . وأمر تشرشل بتدفق الإمدادات العسكرية على الجيش الثامن لكى يتحقق له الانتصار على القوات الألمانية والإيطالية تحت قيادة روميل ، وعندما تحقق هذا الانتصار كانت له نتائج حاسمة فى مسار الحرب العالمية الثانية كلها فى مختلف الميادين الأخرى .

«تشرشل يأمر بتدفق الإمدادات العسكرية للجيش الانجليزى بالعلمين»

والآن ، لقد توقف جيش روميل فى الصحراء عند العلمين وكف عن الحركة للأمام انتظارا لتوافر الإمدادات التى تتيح له فرصة التقدم إلى الأمام فى اتجاه الشرق لدخول مصر ، وطالت خطوط مواصلاته مسافة تبلغ ١٢٠٠ ميل وهى المسافة بين قاعدته الأساسية فى طرابلس وبين مواقع قواته عند العلمين . وكان التفوق الجوى والبحرى البريطانى فى ازدياد مطرد مستمر ، ونتيجة لذلك أصبحت إمدادات الجيش الثامن البريطانى فى ازدياد مستمر بينما كانت إمدادات جيش روميل فى تناقص واضمحلال مستمر .

•• تضارب الآراء بين روميل وقياداته :

ولم تكن هذه الظروف غير الملائمة لجيش روميل خافية عن روميل ، ولذلك قرر روميل إجراء انسحاب طويل على الرغم من قوة موقع العلمين بجناحيه الآمنين لبدء الهجوم على مصر ، ولكن أين الإمدادات اللازمة للهجوم على مصر ؟ حيث إن هذه الإمدادات يستحيل على كل من ألمانيا وإيطاليا توفيرها لجيش روميل فلا فائدة من البقاء فى العلمين . وكان قرار روميل صائبا تمامًا

فى هذا الصدد . إن هذا الانسحاب الطويل إلى طبرق أو بنى غازى سيعطى للإنجليز أميالا طويلة من رمال الصحراء لا نفع فيها تطيل فقط من خطوط مواصلات قوات الجيش الثامن البريطانى . ولو كان روميل قد حصل على تصديق قيادته العليا على الانسحاب إلى منطقة السلوم مثلا كما كان روميل يطلب ذلك لأمكن له إعادة تجميع وتنظيم وتسليح قواته بعيدا عن تدخل قوات العدو . وفى هذه الأثناء كان من الممكن تنظيم هجوم ألمانى على مالطة لتأمين مواصلات الإمدادات الألمانية استعدادا لهجوم فعال لدخول مصر كما اقترح ذلك روميل بكل إلحاح ... ولكن أى رأى يتضمن الانسحاب كان غير مقبول عند هتلر شخصيا ، ولقد تسمرت أنظار هتلر على قناة السويس ، وتسمرت أنظار موسولينى على الأهرام ، ولم يقدم أى منهما الإمدادات اللازمه للوصول إلى الأهرام أو قناة السويس ، ولم يوافق هتلر على ضرورة الاستيلاء على جزيرة مالطة كما كان روميل يرغب فى ذلك بشدة ، ولم يوافق هتلر ولم يوافق موسولينى على أى انسحاب للقوات الألمانية والإيطالية تحت قيادة روميل عن العلمين بوصة واحدة . وهكذا لم يكن بالإمكان تجنب الكارثة التى فرضها موقف تموين وإمداد روميل على جيش روميل ، ونتيجة لذلك تلاشى فى صدر روميل كل أمل فى الاستيلاء على دلتا النيل وقناة السويس . ونتيجة لذلك أيضا تلاشى من ذهن روميل ذلك الحلم بحركة «الكماشة الكبرى» التى ينحدر فيها جيش ألمانى عبر أوكرانيا وجبال القوقاز فى جنوب روسيا لكى يلتقى مع جيش روميل القادم من صحراء شمال إفريقيا ليجتاز بلاد الشرق الأوسط عبر قناة السويس ليتم الاستيلاء على حقول بترول الشرق الأوسط ليستمر الهجوم على الجناح الجنوبى المكشوف للاتحاد السوفيتى للاستيلاء على قمح أوكرانيا .

على كل حال أصدر هتلر أوامره التى تتضمن عدم موافقته على أى انسحاب عن موقع العلمين وتتضمن ضرورة اتخاذ روميل كل ما يلزم من

استعداد لمهاجمة دلتا النيل للوصول إلى قناة السويس . ووصل موسولينى نفسه إلى شمال إفريقيا لكى يأمر روميل بضرورة أن يستعرض قواته تحت سفح الهرم، وكل ما كان لديه لكى يعطيه إلى روميل هو مجرد وعود بكميات إضافية من البترول ، وماذا كان عند موسولينى سوى هذه الوعود ؟

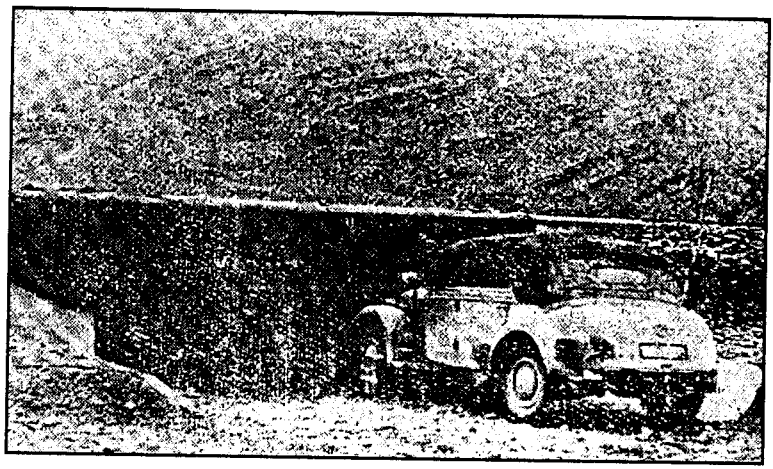

«روميل ينشىء مركز القيادة أسفل كوبرى »

أما وقد رفض كل من هتلر وموسولينى الموافقة على أى انسحاب يقوم به روميل عن موقع العلمين ، فقد أخطرهما روميل أنه من الضرورى سرعة تزويده بكل ما يحتاجه من جنود لا يقل عن فرقة مدرعة وكميات كبيرة من الذخيرة والمدافع والبترول ؛ لأن الهجوم على دلتا النيل يلزم أن يتم فى أقرب فرصة وإلا ضاعت كل فرصة لأن الإمدادات البريطانية للجيش الثامن فى ازدياد مطرد وقد تضاعفت خطورة استيلاء روميل على دلتا النيل وقناة السويس لدى أعلى قيادة فى بريطانيا وأصبح رئيس الوزراء البريطانى ونستون تشرشل شخصيا شديد الاهتمام بهذا المسرح الخطير من مسارح الحرب العالمية الثانية .

وانعقد مؤتمر حربى فى إيطاليا حضره روميل مع كل من الجنرال الإيطالى كافاريللو والفيلد مارشال الألمانى كيسلرنج فى يوم ٢٧ يوليو ١٩٤٢ وتعهد كل منهما أن يقدما إلى روميل ستة آلاف طن من البترول على أن يصله ألف طن

فورا بطريق النقل الجوى وقال لهما روميل : «أن نتيجة الهجوم على دلتا النيل ستتوقف على تسليم هذه الكمية من الوقود فى الوقت الملائم» . وأجابه الجنرال كافاريللو : «يمكنك أن تبدأ المعركة فورا يا جناب الفيلد مارشال . إن الوقود يشق طريقه إليك الآن بالفعل » .

وبعد شهر واحد من انعقاد هذا المؤتمر ، أى فى ليلة ٣١/٣٠ أغسطس ١٩٤٢ بدأ روميل يشن الهجوم على الإنجليز فى العلمين . وكان الإنجليز متفوقين بالفعل على قوات روميل فى الدبابات والمدفعية والذخائر اللازمة للدبابات وفى المدفعية والبنادق . وكان للإنجليز أيضا سيطرة جوية فى سماء أرض المعركة . وكان اختراق الدفاعات البريطانية بالمواجهة مستحيلا كل الاستحالة . ولكن متى كان روميل يصاب باليأس أو التردد إزاء تفوق القوات التى يهاجمها ؟ شن روميل هجمات للتمويه على الطرف الشمالى للخطوط الدفاعية للجيش الثامن ، مع هجوم قوى فى الوسط لمزيد من التمويه إذ قرر روميل أن يكون الهجوم الرئيسى فى الجنوب ملاصقا لمنخفض القطارة بحيث يتم الاختراق الألمانى فى القطاع الجنوبى للدفاعات البريطانية ليصل روميل إلى علم حلفا ثم يندفع الهجوم الألمانى الرئيسى شمالا ليصل إلى الحمام على الطريق الساحلى المتاخم لشاطئ البحر المتوسط فى مؤخرة كل القوات البريطانية وليتم تطويق الجيش الثامن ويتم تدميره وينفتح الطريق إلى دلتا النيل . ولكن الجنرال مونتجومرى كان قد استلم قيادة الجيش الثامن فى العلمين ، وكان خبيرا فى معارك المدرعات وكان يتوقع تكتيكات روميل فى الهجوم الخادع والهجوم الرئيسى فقام مونتجومرى على الفور بتدعيم القوات البريطانية عند «علم حلفا» كما أن الأرض إلى الجنوب من علم حلفا كانت كثباناً رملية لا تصلح لتقدم الدبابات على الرغم من أن إحدى الخرائط التى قام مونتجومرى بتسريبها إلى روميل كانت توهم بأنها صالحة تماما لتقدم الدبابات إذ جعل

منها مونتجومرى طريقا لتقدم دباباته فى خطته الوهمية التى سرب خريطتها الوهمية إلى روميل . وقد سببت هذه المنطقة غير الصالحة لتقدم الدبابات كثيرا من المتاعب لدبابات روميل عندما حددها مسارا لتقدم دباباته جنوب علم حلفا مما أفضى إلى البطء الشديد فى الهجوم الألمانى بالمدرعات على محور التقدم جنوبى علم حلفا .

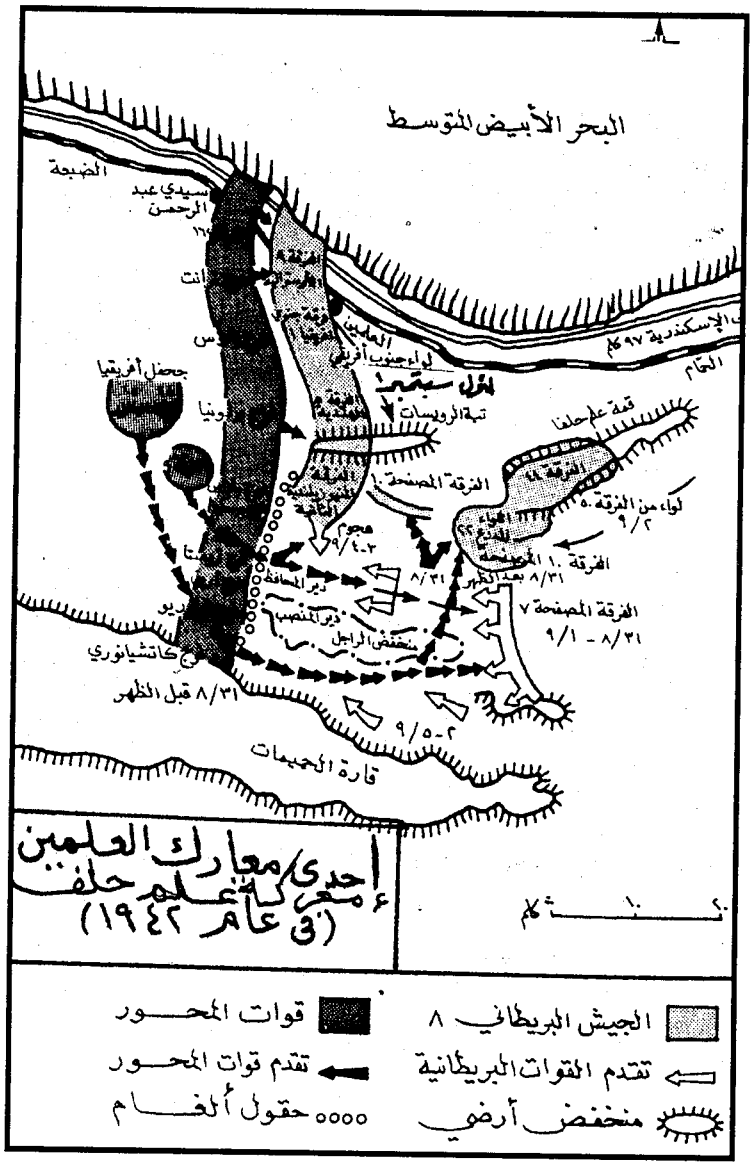

ومضت خمس ساعات على بدء الهجوم الرئيسى جنوبى علم حلفا ، واتجهت المدرعات الألمانية إلى مرتفع علم حلفا ذاته متجنبة الطريق الرملى إلى الجنوب منه ، ولكن حقول الألغام البريطانية كانت لا تزال تحت سيطرة الإنجليز كما أن القوات الجوية البريطانية كانت فى أقصى حالات النشاط والفاعلية فسببت للقوات المهاجمة كثيرا من الخسائر فى المعدات وفى الأرواح وتركت تأثيرا سيئا فى معنويات الجنود الألمان والإيطاليين على حد سواء . أى هجوم هذا الذى لا تسانده قوة جوية كافية فى أرض صحراوية مكشوفة مليئة بحقول الألغام وبقوات مدرعة ومدفعية مضادة للدبابات بالغة القوة والشراسة . فشل هجوم روميل الرئيسى عند علم حلفا ، ولم يستطع الوصول إلى الحمام شمالا خلف خطوط الجيش الثامن البريطانى ، ولم يصل البترول الذى وعد به المارشال كافاريللو والفيلد مارشال كيسلرنج ، وبذلك أصبح روميل مضطرا إلى إيقاف الهجوم ، وبدأ يستعد للتراجع اعتبارا من اليوم الثالث من سبتمبر سنة ١٩٤٢ .

وفور وصول روميل إلى مواقعه الأصلية قبل بدء الهجوم الفاشل على علم حلفا شرع روميل فى كتابة تقرير واف إلى مقر قيادته العليا فى ألمانيا موضحا فيه مدى قصور الإمداد والتموين للفيلق الألمانى فى مسرح الحرب فى شمال إفريقيا وموضحا الأضرار الجسيمة لهذا القصور فى الإمدادات العسكرية الضرورية لقواته ، ومطلوب منه الثبات والتشبث بمواقع قواته عند العلمين ، ومطلوب منه تدمير الجيش البريطانى الثامن مع وفرة الإمدادات العسكرية له وتزايد السيطرة الجوية البريطانية فوق سماء أرض المعركة بصفة متزايدة كل يوم. لماذا لا تعطيه القيادة العسكرية الألمانية العليا من الإمدادات العسكرية اللازمة أقل ما يكفى لتحقيق الأهداف الألمانية فى جبهة القتال فى شمال إفريقيا ؟

وتم استدعاء الفيلد مارشال إروين روميل إلى ألمانيا للعلاج ولتقديم إيضاحات

مباشرة إلى هتلر ونائبه الأول جورنج عن الموقف العسكرى فى شمال إفريقيا واستلم منه القيادة الجنرال شتومى . ولاحظ روميل منذ بدء ذلك الاجتماع استخفاف هتلر ونائبه جورنج بخطورة الموقف بالنسبة للقوات الألمانية والإيطالية فى شمال إفريقيا ، وعندما أشار روميل إلى الازدياد المستمر فى الإمدادات العسكرية للقوات البريطانية وإلى ازدياد السيطرة الجوية البريطانية وإلى تدفق الدبابات والمدافع والطائرات والقنابل الأمريكية على القوات البريطانية ، عندئذ تصدى له مارشال الجو ، النائب الأول للفوهرر ، جورنج وانبرى يقول له : «هذا هراء . هذا مستحيل قطعا . لا شيء سوى إشاعات عفنة تتردد عن التدخل الأمريكى فى صف بريطانيا فى جبهات القتال . وكل ما يمكن أن يصنعه الأمريكيون هو أمواس الحلاقة والثلاجات» . وكان روميل قد أحضر معه شظية ضخمة الحجم من قذيفة أمريكية الصنع خارقة للدروع كانت قنبلتها قد دمرت واحدة من دبابات روميل ، وأخرج روميل الشظية من حقيبته ووضعها على المنضدة أمام كل من هتلر وجورنج وهو يقول : «إننى أرغب فقط ياحضرة ماريشال الرايخ فى أن يتم تزويدنا بأمواس حلاقة من نفس نوع هذه الشظية» .

وتدخل هتلر لتلطيف هذه المجابهة الملتهبة فقال لروميل : «ستحل مشكلة الإمدادات خلال الأيام القليلة القادمة فوق متن أعداد كبيرة من ناقلات «سيبل» ذات الحصانة ضد الهجمات الجوية والبحرية التى تم إنتاجها بالفعل فى المصانع الحربية الألمانية . وسيكون عندك ياروميل فى القريب العاجل لواء كامل من الهاونات الثقيلة بالإضافة إلى أربعين دبابة جديدة ماركة تايجر مع وحدات كاملة من مدافع الميدان الجديدة» . مجرد وعود .

واضطر روميل إلى حضور مؤتمر صحفى لتوضيح الموقف فى شمال إفريقيا للرد على الشائعات التى تتصل بهذا المسرح المهم من مسارح العمليات بوجه خاص ، ولم يكن روميل يستطيع بطبيعة الحال أن يعطى الصحفيين صورة

حقيقية عن مخاوفه من تردى الموقف الألمانى الإيطالى فى شمال إفريقيا طبقا لما كان قد لمسه من ظروف التغيير والتحول فى إمكانات القتال لصالح بريطانيا فى ذلك المسرح ، ولكن روميل كان مضطرا إلى التظاهر بقدر كبير من التفاؤل باعتبار أن ما يظهره من تفاؤل فى هذا المؤتمر الصحفى يمكن أن يكون له تأثير مطلوب فى تخدير القيادة العسكرية الجديدة للجيش الثامن كجزء من الحرب النفسية بهدف تأخير موعد الهجوم البريطانى المرتقب على الفيلق الألمانى فى شمال إفريقيا حتى تكتمل الإمدادات العسكرية الألمانية ليصبح أكثر استعدادا لمواجهة الهجوم البريطانى الذى كان يتوقعه روميل إذ أنه كان يدرك أن دوره فى شن الهجمات قد انتهى إلى غير رجعه ، وعليه من الآن فصاعدا أن يستعد لصد هجمات الإنجليز القادمة دون أى شك فى قدومها .

روميل يستمع إلى قائد إحدى الكتائب الإيطالية والذى يشكو نقص إمدادات الطعام والشراب

وشرع روميل على الفور فى تنظيم دفاعات القوات الألمانية والإيطالية عند العلمين لإدراكه استحالة قيام هذه القوات بهجمات ناجحة نظرا لضعف الإمدادات التى كانت تصل إليه بعد معركة هجومه الفاشل على علم حلفا . وكانت المواقع الألمانية الإيطالية عند العلمين تقع بين ساحل البحر ومنخفض القطارة ولا يوجد فى الصحراء الغربية موقع يستحيل الالتفاف على جناحيه مثل هذا الموقع مما كان يحتم على القوات المهاجمة لجيش روميل أن تندفع إلى الهجوم بالمواجهة فقط دون أى قدرة على الالتفاف البرى على الجناح الشمالى جهة البحر المتوسط أو على الجناح الجنوبى حيث يوجد منخفض القطارة ، وكان على القوات المهاجمة أن تعتمد فقط على محاولات الاختراق من الجبهة. وكان الاختراق من الجبهة يلائم القوات البريطانية التى كانت تألف حرب الخنادق منذ الحرب العالمية الأولى والمعارك التصادمية التراكمية بالمواجهة اعتمادا على التفوق فى أعداد القوات المهاجمة مع التفوق فى قوة النيران. وكان نجاح الهجوم أو فشله يعتمد أساسا على وجود هذا التفوق فى العدد وفى قوة النيران . والآن أصبح التفوق العددى والنيرانى فى صالح القوات البريطانية بزيادة مطردة الازدياد كل يوم . وكان الجنود الأستراليون والهنود والنيوزلنديون يألفون هذا النوع من معارك المواجهة بأكثر مما يألفون تكتيكات الالتفاف على الأجناب . ومن هنا بدأت معالم وملامح المعركة القادمة فى العلمين تتضح بكل جلاء مع ازدياد قوة نيران المدافع البريطانية والازدياد فى عدد الدبابات وذخائرها وتوافر الوقود اللازم لتحريكها .

وقرر روميل عدم إتاحة الفرصة للقوات البريطانية للنجاح فى إحداث اختراق فى جبهة قواته عن طريق الهجوم عليها بالمواجهة اعتمادا على شن هجوم مضاد على أى اتجاه لأى هجوم معاد حتى لا يزداد الاختراق عمقا واتساعا . وزرع روميل حقولا كثيفة من الألغام لدرجة أنه قد أطلق عليها تسمية حدائق

الشيطان على خط المواجهة مع قوات الجيش الثامن البريطانى . وقام روميل بتطعيم الوحدات والتشكيلات الإيطالية بوحدات وتشكيلات ألمانية بنسبة فعالة بحيث لا يلقى العبء فى أى مواجهة على كاهل قوات إيطالية محضة . واتخذت فرقة ألمانية كاملة مع لواء مظلات كامل مواقعها فى الحد الأمامى لخطوط دفاع الفيلق الألمانى بالإضافة إلى خمس فرق مشاة إيطالية ، ووضعت قوات الاحتياطى الاستراتيجى فى الجزء الشمالى من الجبهة وكانت تتألف من فرقة البانزر رقم (١٥) والفرقة المدرعة الإيطالية ليتوريو وخلفهما الفرقة (٩٠) الخفيفة الألمانية والفرقة الإيطالية تريستا . ووضع احتياطى استراتيجى أيضا فى الجزء الجنوبى من الجبهة يتألف من الفرقة (٢١) بانزر الألمانية والفرقة الإيطالية المدرعة أريتى .

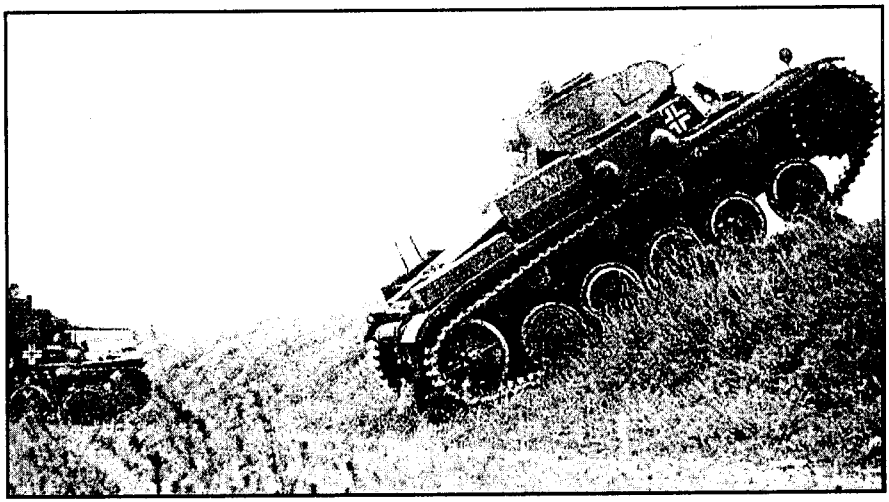

«كان للآليات المصفحة دور مهم فى حرب العلمين»

لكن الإمدادات كانت قد تراكمت تحت تصرف الجنرال مونتجومرى إلى حد كبير كما قام مونتجومرى بكثير من أعمال الخداع والتمويه لإخفاء اتجاه وكيفية الهجوم الذى قرر أن يشنه لهزيمة القوات الألمانية والإيطالية تحت قيادة روميل . ولقد كانت معارك الجاسوسية والجاسوسية المضادة دائرة على قدم

وساق باستمرار فى الفنادق والمسارح والملاهى فى القاهرة وفى روما وفى لندن وفى برلين وفوق مياه البحر المتوسط ذاتها . وقصة الخريطة التى وضعت فى جيب بحار إنجليزى غريق بحيث تصل هذه الخريطة الزائفة إلى الألمان قصة معروفة . كما أن قصة استقطاب الراقصة المصرية «حكمت فهمى» للعمل مع المخابرات الألمانية قصة معروفة . هجوم ودفاع ، وتمويه وخداع ، وجيشان يتصارعان ، وحرب فى غاية العنف لا تكف عن الدوران . وإذا كان روميل يتوقع هجوما بريطانيا رئيسيا من الجنوب بمحاذاة منخفض القطارة نجد أن مونتجومرى يفاجئه بهجوم رئيسى من الشمال بمحاذاة شاطئ البحر المتوسط . وإذا كان الهدف الرئيسى التقليدى للمعارك الهجومية هو تدمير مدرعات الخصم فى المقام الأول فلقد جعل مونتجومرى هدفه الرئيسى الأول هو تدمير تشكيلات المشاه فى دفاعات روميل اعتمادا على غلالات المدافع الضخمة البعيدة المدى والغارات الجوية المستمرة كما أشار إلى ذلك مونتجومرى فى كتابه المعنون بعنوان «من العلمين إلى سانجرو» إذ يقول

«مونتجومرى قائد الجيش الثامن البريطانى فى حرب العلمين»

«قررت أن أختار الطريقة المعكوسة فى المعارك الصحراوية وذلك بأن أبدأ بتحطيم تشكيلات مشاة قوات المحور الماسكة للمناطق الدفاعية ، مساحة بعد مساحة بواسطة الهجمات المتلاحقة المعدة بعناية من مكان إلى مكان على أرض المعركة وهو تكتيك كان يناسب قواتى والتفوق المتاح لى فى المدرعات والمدفعية والطيران» .

كانت نقطة المجهود الرئيسى فى خطة هجوم مونتجومرى تقع فى الجزء الشمالى من جبهة جيش روميل لاستخدام الطريق الموازى لشاطئ البحر المتوسط، وكانت القوة التى تقوم بهذا المجهود الرئيسى فى الهجوم هى الفيلق (٣٠) بقيادة الجنرال «أوليفر ليرى» . والفيلق - كما هو معروف - يتكون فى الغالب الأعم من ثلاث فرق عسكرية مع أسلحة التدعيم المصاحبة لها ، وكان الفيلق (٣٠) يتكون من أربعة فرق هى الفرقة التاسعة الأسترالية ، والفرقة (٥١) الإسكتلندية والفرقة الثانية النيوزيلاندية والفرقة الأولى الجنوب إفريقية . وقد أناط مونتجومرى بقوات هذا الفيلق مهمة فتح ثغرتين فى حقول الألغام الألمانية لتندفع منهما الفرقتان المدرعتان الأولى والعاشرة التابعتان للفيلق المدرع بقيادة الجنرال «هربرت لامسدن» وهو الفيلق العاشر فى جيش مونتجومرى وذلك بهدف ضرب أى هجوم معاكس بالمدرعات يقوم به روميل لمحاولة إيقاف الهجوم على قواته . وإلى الجنوب كان فيلق الجنرال «برايان هوروكس» الثالث عشر مكلفا بالقيام بالهجوم على محورين بالاشتراك مع الفرقة (٤٤) مشاة والفرقة (٥٠) وفرقة جرذان الصحراء وهى إحدى الفرق المدرعة . وكان القصد من هذا الهجوم هو تضليل روميل عن اتجاه الهجوم الرئيسى على المحور الشمالى من الجبهة ولإخراج الفرقة الألمانية (٢١) البانزر من نطاق المجهود الرئيسى فى الشمال نظرا لقوة تسليح مدرعات هذه الفرقة .

كان لدى مونتجومرى ثلاث فرق مدرعة كاملة بالإضافة إلى أربعة ألوية مدرعة مستقلة لتدعيم فرق المشاة ، وكان عدد دبابات مونتجومرى يصل إلى ألف دبابة فى مقابل فرقتين مدرعتين بانزر ألمانيتين مجموع الدبابات بهما سويا هو مائتان وسبعون دبابة بالإضافة إلى ثلاثمائة دبابة إيطالية خفيفة التدريع ومدى مدافعها قصير بحيث لا يعتمد عليها فى أى معارك تصادمية مع مدرعات أقوى دروعا ومدافعها أبعد مدى من مدافع الدبابات الإيطالية ، وهذا

هو السبب فى اندحار القوات الإيطالية أمام الإنجليز فى بداية الحرب فى مسرح شمال إفريقيا. كانت الدبابات الإيطالية تستخدم مع تشكيلات المشاة وكانت دبابات قديمة عديمة القيمة لا يصح حسبانها فى نطاق المدرعات إلى حد كبير.

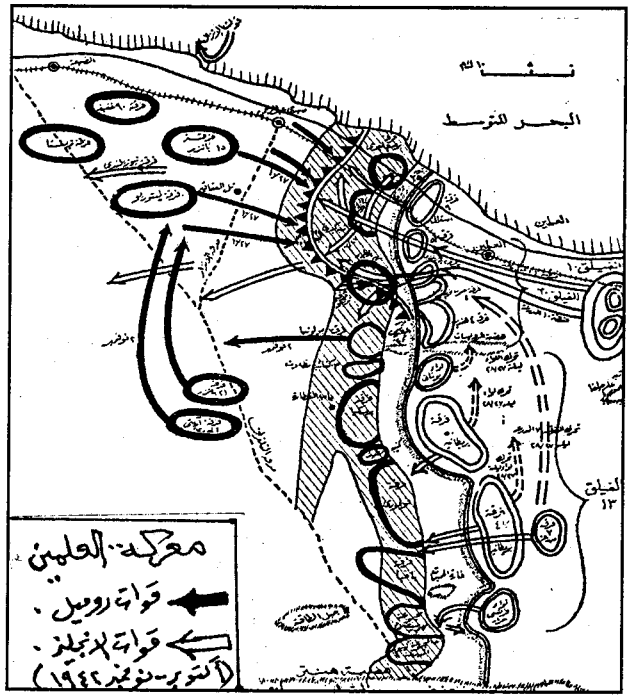

ولقد كانت ليلة الثالث والعشرين من أكتوبر سنة ١٩٤٢ ليلة مقمرة ساكنة صافية السماء . وفى الساعة ٢١,٤٠ (التاسعة وأربعين دقيقة قبل منتصف الليل) ، وتحت ضوء القمر الساطع فتحت مدفعية مونتجومرى نيرانها بمعدل ألف قذيفة فى الدقيقة الواحدة جعلت منطقة العلمين كلها جحيما مليئا بالانفجارات المدوية والدخان والغبار . وفى الساعة ٢٢ (العاشرة مساءً) انتقل القصف المدفعى إلى مواقع المشاة فى جيش روميل وإلى نطاق حقول الألغام التى كان روميل يعتمد عليها لتعطيل هجوم مونتجومرى . وشرع الفيلق (١٣) والفيلق (٣٠) فى الهجوم على قوات روميل . وتمكن الأستراليون

والإسكتلنديون من فتح ثغرة فى الجانب الشمالى من حقول ألغام روميل واندفعوا فى هجومهم غربا شمالى مرتفع المطيرية . واشترك معهم فى الهجوم النيوزلنديون والجنوب إفريقيون من الجانب الشرقى لمرتفع المطيرية الذى لم يلبث أن أصبح فى حوزة قوات مونتجومرى وأبيدت قوات روميل التى كانت موجودة فوق هذا المرتفع وقامت قوات المشاة الهندية بهجوم واسع النطاق على منطقة هضبة الرويسات فى منتصف جبهة روميل بينما قام الأستراليون بالهجوم على «تل العيسى» فى القاطع الشمالى من الجبهة . واستمرت المعركة طوال الليل ، وعندما طلع الصباح كانت قوات مونتجومرى قد استولت على أهدافها المحددة لها فى الغالب الأعم، وتمكن الإنجليز من تحريك قواتهم المدرعة إلى الأمام فى اتجاه الغرب من خلال الفتحتين اللتين تم فتحهما فى حقول ألغام روميل إذ اندفع خلالهما الفيلق (٣٠) والفرقتان المدرعتان الأولى والعاشرة ومجموع الدبابات فيهما يبلغ سبعمائة دبابة ولكن الفرقة العاشرة المدرعة توقفت عن التقدم وهى على قمة مرتفع المطيرية بسبب شدة نيران المدفعية الألمانية المضادة للدبابات من مدافع عيار ٨٥م ، كما توقف اللواء النيوزيلندى المدرع أمام حقول ألغام يحميها قصف مدفعى ألمانى كثيف . وتوقفت المدرعات البريطانية عن التقدم خلف أحد المرتفعات واقتصرت المعركة على تراشق بالنيران للمدافع البعيدة المدى . ولكن جيش مونتجومرى كان قد نجح فى اختراق مواضع من جبهة روميل ونجح فى التمسك بمواضع الاختراق التى نجح فى اقتحامها أثناء الليل وإن كانت الدبابات البريطانية قد توقفت عن التقدم نحو الغرب وإن دل هذا على شىء فهو يدل على شدة حذر مونتجومرى وإصراره على تجنب تعريض مدرعاته لخطر التدمير فى بداية معركته الهجومية .

وفى هذه الليلة التى ابتدأت فيها المعركة ، ليلة الثالث والعشرين من أكتوبر ١٩٤٢ ، كان روميل لا يزال فى ألمانيا حيث كان يعالج من مرض فى معدته،

وعندما وصلت أنباء بدء هجوم مونتجومرى على قوات المحور إلى ألمانيا يوم ٢٤ أكتوبر ١٩٤٢ ، اتصل به هتلر هاتفيا وقال له : «روميل ... الأخبار القادمة من إفريقيا تبدو سيئة . والموقف يبدو غامضا نوعا ما ، ولا أحد ، فيما يبدو ، يعرف ما حدث للجنرال شتومى . وبناء على ذلك ، هل تشعر بقدرتك على العودة إلى شمال إفريقيا لتتولى قيادة الجيش هناك من جديد ؟» .

وكان روميل تحت العلاج لمدة ثلاثة أسابيع ، ولم يكن شفاؤه قد اكتمل ، وبالرغم من ذلك لم يتردد روميل لحظة واحدة بالرغم من عدم اكتمال شفاؤه وبالرغم من إدراكه لصعوبة موقف قواته نظرا لمشكلات الإمداد ونظرا لتفوق قوات الجيش الثامن من حيث وفرة الإمدادات العسكرية البريطانية والأمريكية .

فى صباح اليوم التالى ٢٥ أكتوبر ١٩٤٢ ركب روميل الطائرة وهبط فى روما لمناقشة مسألة الإمداد بمتطلبات الحرب التى بدأت بالفعل وخصوصا ما يتعلق منها بشأن البترول ثم استأنف روميل رحلته إلى جزيرة كريت ، وفى مساء نفس يوم ٢٥ أكتوبر ١٩٤٢ وصل روميل إلى مقر قيادته فى الصحراء الغربية بشمال إفريقيا حيث قدم إليه الجنرال «رتير فون توما» قائد قوات المحور بالنيابة آنذاك تقريره عن المعركة كما يلى : «لقد تطور الموقف يا سيادة الفيلد مارشال بالضبط كما كان متوقعا ، وذلك يعنى أن الموقف قد تطور لغير صالحنا، دمرت مدفعية العدو بنيرانها الكاسحة حقول ألغامنا قبل أن تطأها المشاة بأقدامهم ، وأصبحت حقول ألغامنا فى حوزة العدو . وقد نجح الهجوم المضاد الذى قامت به قوات الفرقة الخامسة عشرة بانزر فى إيقاف العدو ولكنها لم تستطع رده على أعقابه ومطاردته إلى الوراء . أما المسكين الجنرال شتومى فقد كان قد توجه فى الساعات الأولى من يوم ٢٤ أكتوبر ليستطلع بنفسه أرض المعركة ووجد نفسه فجأة محاطا بجنود المشاة البريطانيين المسلحين بالمدافع الرشاشة والأسلحة المضادة للدبابات . وقتل الكولونيل بيوشنج ياوره الخاص

عندما أصابت رصاصة رأسه ، واستدار السائق بسيارته عندما قفز منها الجنرال شتومى الذى عثرنا عليه ميتا بجوار السيارة من جراء نوبة قلبية فاجأته فى تلك الأثناء . لقد كان الجنرال شتومى قد منعنا من تدمير مواقع بدء هجوم العدو بسبب النقص فى الذخيرة وأفضى التأخير فى إطلاق النيران من جانبنا إلى نجاح العدو فى اقتحام حقول الألغام الخاصة بنا وإلى الدخول إلى مواقعنا الأمامية متكبدين أقل ما يمكن من الخسائر . أما موقف البترول فهو لم يسمح لنا إلا بتحركات محدودة وهجمات مضادة موضعية . وعندما قامت قوات الفرقة ١٥ بانزر بهجوم مضاد ، تعرضت لغارات شديدة التأثير بسبب الطائرات البريطانية ولم يبق من دباباتها «إلا عدد ٣١ دبابة صالحة للاستخدام كما لم يبق من الوقود إلا كمية قليلة» .

•• وطنية روميل :

وهكذا أنهى الجنرال «رتير فون توما» تقريره الشفوى المخزن أمام الفيلد مارشال روميل الذى صمم على طرد العدو خارج خطوط دفاعاته الرئيسية وأخذ يأمر بتجميع قواته المدرعة وقوات المدفعية فى الجانب الشمالى من الجبهة التى اتضح أن الهجوم الرئيسى للجيش الثامن يركز فيها الهجوم . ولم يترك روميل فى الجانب الجنوبى من الجبهة إلا الفرقة (٢١) بانزر .

هل يستطيع الفيلد مارشال إروين روميل وقد عاد من ألمانيا إلى أرض المعركة التى كانت قد بدأت بالفعل عند العلمين أن ينجح فى التغلب على التفوق الكمى والنوعى لقوات الجيش الثامن البريطانى وفى التخلص من آثار التفوق فى الإمدادات العسكرية للجيش الثامن بقيادة الجنرال مونتجومرى ؟ هل يستطيع روميل أن يثبت مرة أخرى أن براعة القيادة يمكن أن تهزم الأسباب الحقيقية لهزيمة عسكرية أكيدة ؟ لقد نجح روميل فى ظروف مشابهة من قبل فهل ينجح هذه المرة أيضاً ؟ هيهات هيهات ! إن حجم التفوق فى إمدادات

ومعدات وذخائر وطائرات الجيش الثامن البريطانى قد أصبح من المستحيل آنذاك التغلب عليها بالغا ما بلغت براعة القيادة لدى أمهر القادة العسكريين بحيث يتحتم أن تتجه براعة وقدرات القائد الماهر نحو التخلص من المعركة بأقل الخسائر بدلا من تدمير قواته وعتادها فى معركة تدل كل دلائل تقدير الموقف العسكرى على خسرانها ، ولقد كان قرار ضرورة التخلص من المعركة هو قرار روميل ، ولكنه لم يكن قرار هتلر أو موسولينى ، وكان ذلك هو سبب هزائم ألمانيا المتكررة سواء فى العلمين أو غيرها من معارك الحرب العالمية الثانية على نحو ما هو معروف للكافة الآن .

وفى الليلة الواقعة بين يوم ٢٥ أكتوبر و٢٦ أكتوبر سنة ١٩٤٢ ، أطلقت مدفعية الجيش الثامن نيرانها من جديد بشدة على طول خط المواجهة من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب فى سد نيرانى زاحف فى اتجاه الغرب واندفعت المدرعات الألمانية شرقا للرد على تلك النيران فى محاولة للقضاء على مصدرها ولكن أغارت عليها الطائرات البريطانية وأصابت كثيرا منها إصابات مباشرة مما أوقف تقدمها وعجزت عن اختراق خطوط القوات البريطانية المهاجمة .

وقبل منتصف الليل بقليل تمكنت القوات البريطانية من التقدم غربا ومن احتلال النقطة (٢٨) فوق هضبة كيدنى المتحكمة فيما جاورها من أرض مفتوحة إلى الغرب من هذه الهضبة المهمة ، وتمكنت القوات البريطانية بذلك من التقدم غربا فى صباح تلك الليلة لمواصلة الاختراق Penetration فى الدفاعات الألمانية لتوسيع رأس جسر الهجوم البريطانى . وقام الألمان بدفع الفرقة المدرعة الخامسة عشرة وفرقة ليتوريو الإيطالية لمحاولة منع هذا الاختراق إلا أن هاتين الفرقتين لم يتح لهما رد البريطانيين على أعقابهم وظلت قمة المرتفع فى يد البريطانيين وإن لم تبتعد القوات الألمانية كثيرا عن سفح هذا المرتفع الاستراتيجى المهم فى تلك المعركة . لقد كان البريطانيون قد نجحوا أثناء تلك

الليلة فى الوثوب إلى مرتفعات هضبة كيدنى ، وكان مونتجومرى قد حصل بالفعل على نقطة انطلاق جيدة لمواصلة الهجوم .

وقام روميل بتحريك الفرقة (٩٠) المدرعة الخفيفة لمواجهة محاولة الاختراق، وعندما لاحظ روميل أن البريطانيين يحاولون توسيع مساحة الاختراق شمالا عند سيدى عبد الرحمن ، قام روميل بتحريك فرقة «تريستا» الإيطالية إلى الشرق من «الضبعة» للحيلولة دون توسيع الاختراق البريطانى شمالا . وكان موقف البترول وموقف الذخيرة بوجه خاص يحد من قدرات جيش روميل على صد الهجوم البريطانى كما كانت الطائرات البريطانية قد حققت السيطرة الجوية على أرض المعركة ، كما كان البريطانيون يمتلكون وحدات قوية من المدفعية المضادة للطائرات مما كان يحد من قدرة الطائرات الألمانية والإيطالية التى كان يزج بها الألمان فى ميدان المعركة .

وتمكن البريطانيون بعد أن زجوا بعدد مائة وخمسين دبابة جديدة فوق هضبة كيدنى من مواصلة الاختراق غربا فى ظهيرة يوم ٢٦ أكتوبر ١٩٤٢ .

وازداد موقف الإمدادات إلى القوات الألمانية والإيطالية سوءاً عندما أغرق الإنجليز الباخرة الألمانية «بروزريتا» مع كل ما كانت تحمله من بترول عندما قصفتها الطائرات البريطانية بالقرب من ميناء طبرق . وعند ذلك أبلغ روميل القيادة الألمانية فى برلين مباشرة برقية يقول فيها : «سنخسر هذه المعركة بالتأكيد إذ لم يتحسن موقف الإمداد والتموين» . ولم يكن هنالك أى أمل فى أن يتحسن موقف الإمداد والتموين . وكيف يتحسن موقف الإمداد والتموين ، وكل طائرة وكل دبابة وكل مدفع وكل طلقة مدفع أو دبابة وكل برميل من البترول مطلوب لإنقاذ الجيوش الألمانية فى روسيا . لم يكن هنالك فائض يعتد به لكى يأخذه جيش روميل . والإمدادات القليلة التى كانت تتجه للوصول إلى جيش روميل كان معظمها يتم للبريطانيين إغراقها فى البحر المتوسط وأثناء

تحركها من طرابلس وطبرق إلى جبهة العلمين . لقد أصبحت هزيمة الجيش البريطانى الثامن بقيادة الجنرال مونتجومرى فى العلمين مستحيلة بالفعل فى تلك الظروف الحاسمة .

بعد معركة «كيدنى» كان الجنرال مونتجومرى يحتفظ بعدد ٨٠٠ دبابة ، وكان روميل قد حشد معظم قواته فى القاطع الشمالى وحاول أن يوقف تقدم القوات البريطانية ويثبتها فى هذا القاطع الشمالى ثم يقوم بالالتفاف حولها عند «المطيرية» جنوبا بالفرقتين البانزر (١٥ ، ٢١) . ولكن الهجوم البريطانى فى القاطع الشمالى لم يتوقف لشدة إصرار البريطانيين على التقدم غربا كما أن قذائف المدفعية البريطانية والمدرعات والطائرات كانت تؤثر بشدة على القوات الألمانية وتكبدها باستمرار خسائر فادحة . كانت أسلحة وذخائر مونتجومرى فى ازدياد مطرد باستمرار معركة العلمين ، وكانت أسلحة وذخائر روميل فى تناقص مطرد باستمرار هذه المعركة ، فماذا عساها أن تكون نتيجة المعركة عند العلمين ؟

(روميل ـ الذى يرتدى الكاب الأعلى فى المنتصف بينما الشخص الذى يميل على المنضدة هو الجنرال الإيطالى «كالفى»)

وفى يوم ٢٨ أكتوبر ١٩٤٢ ، اضطر روميل أن ينتقل بمقر قيادته إلى مسافة كبيرة غرب العلمين ، وفى يوم ٢٩ أكتوبر وصلت إلى مقر قيادة روميل برقية محزنة تفيد أن ناقلة البترول «لويزيانا» التى كانت قد حلت محل ناقلة البترول «بروزريتا» قد أغرقت هى الأخرى بتأثير غارة جوية بريطانية .

وعندما لاحظ مونتجومرى قوة الدفاعات الألمانية عند سيدى عبد الرحمن بسبب المدرعات الألمانية بالفرقة (٩٠) الألمانية ، قرر مونتجومرى تحريك المجهود الرئيسى للهجوم البريطانى جنوبا لاختراق دفاعات إيطالية ضعيفة . ولم يستطع روميل توفير قوات أخرى أو تحريك قوات للتصدى للمحور الجديد لهجوم مونتجومرى جنوبى سيدى عبد الرحمن .

وفى أول نوفمبر بعد معركة ضارية حول سيدى عبد الرحمن أحصى روميل عدد المدرعات الصالحة للاستخدام المتبقية لديه فوجدها لا تزيد على عدد (٩٠) دبابة ألمانية وعدد (١٤٠) دبابة إيطالية محدودة الفعالية القتالية ، وأمر روميل على الفور باستطلاع موقع «فوكة» تمهيدا للانسحاب إليه عند اللزوم .

ومن الطريف أنه قد وصلت إلى مقر قيادة روميل فى نفس هذا اليوم برقية من المارشال الإيطالى آجو كافاريللو الذى كان يتولى القيادة المباشرة بالمشاركة مع الفيلد مارشال الألمانى كيسلرنج للفيلق الألمانى الإيطالى فى شمال إفريقيا يقول فيها : «طلب منى الدوتشى أن أعبر لك عن عميق تقديره للهجمات المضادة الناجحة التى توليت قيادتها بنفسك . وبالإضافة إلى ذلك يرغب الدوتشى فى أن تعلم سيادتك أنه واثق تماما من أن المعركة الجارية الآن تحت قيادتك ستكلل بالنصر المبين فى النهاية» .

توقيع : آجو كافاريللو - مارشال إيطاليا

•• عناد هتلر !

وبعد معارك عنيفة طوال يومى ١-٢ نوفمبر ١٩٤٢ دمرت فيها معظم قوات روميل وتم طحنها طحنا شديدا واتسعت ثغرة الاختراق البريطانى وأصبح عرضها حوالى خمسة كيلومترات ، وبعد غارات جوية بريطانية وقصف بالمدفعية والمدرعات ونيران مستمرة تستمد ذخائرها من معين لا ينضب بينما كانت قوات روميل قد استهلكت (٤٥٠) طنا من الذخيرة ولم تستلم عوضا عنها إلا (١٩٠) طنا من الذخيرة فقط وصلت من ميناء طبرق الذى كان يبعد عن العلمين بمسافة ٣٠٠ ميل ، بعد ذلك رجع الفيلد مارشال إروين روميل إلى قيادته يوم ٢ نوفمبر ١٩٤٢ ليجد فى انتظاره برقية من هتلر يقول له فيها ما يلى:

«إلى الفيلد مارشال روميل : إننى والشعب الألمانى نراقب المعركة الدفاعية البطولية الناشبة فى مصر . وبناءً على الثقة التامة فى قدراتك القيادية وفى شجاعة القوات الألمانية والإيطالية تحت قيادتكم ، ليس هنالك أى اعتبار آخر بالنسبة إلى القوات العسكرية الموجودة تحت قيادتك الآن سوى الثبات بقوة وعدم التراجع خطوة واحدة . ادفع بكل بندقية وبكل رجل إلى المعركة وسوف تصلكم تعزيزات جوية مهمة إلى رئيس أركان جيش الجنوب خلال الأيام القليلة القادمة ، وفى نفس الوقت سيبذل الدوتشى وقيادته كل الجهد لضمان إمدادك بكل ما يلزمك للمضى فى المعركة . والعدو رغم زيادة قوته من حيث الكم فهو سيصل هو أيضا إلى نهاية موارده ولن تكون هذه هى المرة الأولى فى التاريخ حيث تسيطر وتنتصر الإرادة الأقوى على العدو الأكثر عددا وعُدَّة ونحن لا نسمح لك أن تحدد للقوات التى تحت قيادتك طريقًا آخر غير الطريق الذى يقود إلى النصر أو يقود إلى الموت» .

التوقيع :

أدولف هتلر

نعم ، النصر أو الموت ! ذلك هو كل ما يعرفه هتلر عن الحرب . القيادة العليا الألمانية ، والقيادة العليا الإيطالية فى واد هو وادى أحلام النصر ، والجنود الألمان والإيطاليون فى واد آخر رملى صخرى فى شمال إفريقيا وقد مات كثير منهم تحت القصف البحرى والبرى والجوى العنيف وتحطمت أسلحتهم وتحطمت مدرعاتهم وتحطمت روحهم المعنوية فى أعقاب القتال الضارى فى اليوم الأول واليوم الثانى من شهر نوفمبر ١٩٤٢ . وضاع النصر من جيش روميل ولم يبق إلا الموت لو تمسك روميل بالطريق المفضى إلى النصر ولم يعد إلى النصر أى سبيل . وكان روميل يدرك أن التخلص من المعركة وإنقاذ بقايا سلاحه وعتاده وجنوده هو القرار السليم ولكن أوامر هتلر وأوامر موسولينى تأمره بالثبات وعدم التراجع خطوة واحدة للخلف وتحقيق النصر أو الموت ويعده كل منهما بوصول إمدادات إليه يعلم روميل أنها لن تصل حتى لو حاولوا إرسالها نظرا لسيطرة أعدائه على طرق المواصلات فى شرق البحر المتوسط وغربه .

وبالرغم من كل ذلك لم يعد من حق روميل أن يعمل ويتصرف وفقا للقرار السليم الملائم لظروف المعركة على الرغم من أنه كان قد أمر بالفعل باستطلاع مواقع جديدة للتراجع غربا جنوبى مرتفعات «الضبعة» لإنقاذ ما يمكن إنقاذه وإعادة تنظيم قواته .

وإزاء الأوامر المشددة بعدم التراجع خطوة واحدة وتحقيق النصر أو الموت أمر روميل بقايا الفيلق الإفريقى الألمانى وبقايا الفرقة (٩٠) بعدم التراجع والتمسك بموقع مرتفعات «تل العقاقير» وذلك فى صباح يوم ٤ نوفمبر ١٩٤٢ .

وعندما تقابل الجنرال ريتر فون توما مع العقيد «فرتيز بايرلين» أركان حرب روميل قال الجنرال الإيطالى الكفء للعقيد الألمانى : «بايرلين ، إن أمر هتلر لنا بعدم التراجع جنون مطبق» . وتنبأ الجنرال توما بتدمير القوات الألمانية والإيطالية فى القتال الذى سيدور فى نفس هذا اليوم الرابع من نوفمبر ١٩٤٢ .

وبالفعل ، فى الساعة الثامنة من صباح ذلك اليوم شن البريطانيون هجومهم الرئيسى الحاسم . استمر القصف المدفعى البريطانى متواصلا لمدة ساعة كاملة تمهيدا للهجوم على «تل العقاقير» وحاول الألمان والإيطاليون التصدى لهذا الهجوم ، وليس هنالك أكثر تصويرا لهول هذه المعركة من وصول الملازم هاردينج إلى مركز قيادة روميل لكى يقول للعقيد بايرلين رئيس أركان حرب روميل بالحرف الواحد ما يلى : «أرسلنى الچنرال ريتر فون توما إلى الخلف ومعى جهاز اللاسلكى الخاص به وأخبرنى أنه لم يعد بحاجة إليه . ولقد تم للعدو تدمير جميع دباباتنا ومدافعنا المضادة للدبابات ومدافعنا المضادة للطائرات فى هضبة تل العقاقير ، ولست أدرى ما حدث للچنرال نفسه» .

وبعد قليل وصلت إلى مقر قيادة روميل رسالة تمكنت قيادة استطلاعه التقاطها عبر خطوط اتصالات البريطانيين تقول : «لقد أسرنا الآن چنرالا اسمه ريتر فون توما» .

وبعد قليل من وصول هذه الإشارة التى اطلع عليها روميل ، لم يلبث روميل أن قال لرئيس أركان حربه العقيد بايرلين بالحرف الواحد ما يلى : «بايرلين ، إن ما حاولنا منع حدوثه بكل قواتنا قد حدث الآن ، ولقد تحطمت جبهتنا ، وقوات العدو تندفع كالسيل وراء مواقع قواتنا فى منطقتنا الخلفية ولم يبق بعد الآن أى مجال لإطاعة وتنفيذ أمر هتلر بعدم التراجع إلى الخلف خطوة واحدة بعد أن حاولنا ذلك بكل جهودنا فعلا واتضحت معالم الفشل فى ذلك تماما . وبناء على ذلك سننسحب إلى مواقع مناسبة فى منطقة «فوكة» وأنا أضع بين يديك مسئولية قيادة القوات وإصدار الأوامر اللازمة لكل منها مستخدما كافة صلاحياتى أثناء قيامى بالمرور على مواقع قواتنا بنفسى لكى أصدر ما يلزم بشأن انسحابها» .

وبعد ذلك ركب روميل دبابته وذهب لزيارة الوحدات فى جيشه المغلوب لكى يعطيها بنفسه شخصيا الأوامر بالتراجع إلى الخلف بخطوات محسوبة بكل دقة .

وعند حلول ظلام الليلة الواقعة بين يوم ٤ نوفمبر ويوم ٥ نوفمبر ١٩٤٢ ، أصدر العقيد بايرلين الأوامر باسم روميل لقطع الاتصال وفك مواقع الاشتباك

مع قوات العدو المنتصر لإنقاذ البقية الباقية من قوات روميل حتى لا تكون هذه القوات قد أبيدت كلها .

•• تراجع واستسلام

روميل ومعاونوه ولحظة تأمل قبل الانسحاب

وفى صباح يوم ٦ نوفمبر ١٩٤٢ وصلت إلى مقر قيادة روميل برقية من هتلر يقول فيها : «أوافق على انسحاب جيشك إلى موقع فوكة» . وكان الإنجليز قد اجتاحوا موقع فوكة آنذاك !

لقد تحتم الآن أن يتخلى جيش روميل عن كل مكاسبه السابقة وانتصاراته الساحقة فى الصحراء الليبية موقعا بعد موقع بكل سرعة ممكنة وهى مواقع دفع روميل ثمنها بالكثير من الدماء : مرسى مطروح ، السلوم ، البردية ، وأخيرا طبرق نفسها ثم برقة التى تبادل الألمان والإنجليز احتلالها أربع مرات خلال سنتين حافلتين بالمعارك الحربية الصحراوية الشرسة هجوما ودفاعا .

وفى يوم ٨ نوفمبر ١٩٤٢ ، وصلت إلى مقر قيادة روميل أنباء نزول الفيلق الأمريكى بقيادة الجنرال دوايت إيزنهاور فى المغرب والجزائر وأصبح الفيلد مارشال إروين روميل بين نارين ، لتتضح أمامه بكل وضوح كل تفاصيل بداية النهاية .

ولقد كانت هزيمة جيش روميل فى معركة العلمين بسبب تفوق الإمدادات البريطانية على الإمدادات الألمانية والإيطالية نقطة تحول مهمة فى كل مسارح الحرب العالمية الأخرى ، وأصبح من المتفق عليه فى كل جيوش الحلفاء ، وقيادات جيوش الحلفاء أن الجيش الألمانى يمكن أن يتم قهره وأن تتم هزيمته وليس ذلك مستحيلا كما كان هتلر والعاملون فى جهاز دعايته يتشدقون . لقد أصبحت هزيمة جيش ألمانى أمرًا ممكنا !! .